University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المرج
المجلة الليبية العالمية

العدد السادس والعشرون – 25 / أغسطس(2017)

فن التوقيعات الأدبية العباسية - دراسة وصفية بلاغية تطبيقية

أ. عثمان سعد علي عمر.

(قسم اللغة العربية - كلية التربية المرج - جامعة بنغازي - ليبيا)

الملخص:

إنّ للأدب العربي في العصر العباسي أهميةً خاصةً تميزه عن باقية عصور الأدب ؛ لكونه يمثل الحضارة العربية والإسلامية في أوج نضْجِها العلمي والأدبي في العلوم والآداب المختلفة التي وجدت حقها من التدوين والحفظ من عاديات الزمن، فنشطت بذلك الكتابة و انتقلت من مجرد مهنة وحاجة فرضها العصر إلى صناعة ُقيّض لها جهابذة من الكتّاب والأدباء العباسيين وأصبحت لها دواوين مستقلة تعرف بدواوين الإنشاء، مما هيأ لأنواع النثر أن تزدهر أنْ تصبح لها سوق رائجة في هذا العصر ، بل اقتحم على الشعر أبوابه وشاركه في ميادينه (الجاحظ: 1983م ،ص17) وزاحمه المكانة المرموقة التي كان يحتلها في الحياة العربية منذ العصر الجاهلي ، فتنوعت فنونه وتعددت موضوعاته وقوالبه الأدبية من خطب ورسائل و توقيعات وغيرها، وإنْ حظيت معظم هذه الفنون بالدراسة والبحث من لدن الدارسين المعاصرين ظل فن التوقيعات أقل اهتماماً وشهرة من غيره وكل من نجده مقتطفات مبتسرة هنا وهناك في ضحى الإسلام لأحمد أمين أو تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) لشوقي ضيف وغيرها، أومقالات ورقية و إلكترونية اكتفت بتناول الموضوع تناولاً سطحياً ولم تحاول الولوج إلى لب نصوص التوقيعات وتسعى إلى تحليل مضامينها الفنية والبلاغية بعمق وتكشف عما تخفيه هذه المضامين من خبايا وخفايا جديرة بالبحث فيها والتعريف بها، ومن هنا جاءت أهمية الكتابة في هذه الجوانب، علّ الباحث يظفر بما لم يظفر به غيره كما يهدف الباحث من خلال هده الدراسة إلى لفت النظر إلى أهمية هذا الفن النثر الدي لايقل أهمية عن غيره من فنون النثر العباسي وربما فاق بعصها من الناحية الفنية المستندة على ثلاثية الإيجاز والبلاغة والإقناع.

الكلمات مفتاحية: التوقيعات ،الموقعون ، الكتابة ، النثر، العصرالعباسي .

المقدمة:

لمّا نشطت الكتابة في العصر العباسي وتعددت فنونها من خطابة ورسائل و قصص وتوقيعات وغيرها وفي هذا المناخ النشط ، ظهر فن التوقيعات الأدبية في الحياة العباسية بوصفه وسيلة تيسر على الحكام الاتصال والتواصل مع عمالهم ورعيتهم والتعرف على شكاواهم وتظلماتهم وحاجاتهم المختلفة لنجد هذا الفن بعد ذلك يبتعد عن الطابع المراسيم السلطانية الصارمة ويقترب من الصبغة الأدبية بسبب سلاسة لغته وبلاغة أساليبه وتطور فكرته مما جعل كتب التراث الأدبية والتاريخية تدونها تحت فرائد الكلام ودرره ونفائسه النادرة وذلك مثلما فعل ابن عبد ربه الأندلسي (328 هـ) في العقد الفريد والجهشياري في الوزراء والكتاب والآبي (328 هـ) في نثر الدر والثعالبي في خاص الخاص وتحفة الوزراء (421هـ) وغيرهم،

وقد برع في هذا الفن الكتابي في العصر العباسي خلفاء عباسيون كالسفاح والمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وعبد الله بن المعتز ووزراء كجعفر بن يحيى والفضل بن سهل و جهابذة كتّابهم لعمر بن مسعدة ، وقواد مفوهون كأبي مسلم الخراساني وسواهم، وقد أوتي هؤلاء الأعلام حظاً وافراً من البلاغة والفصاحة

ورجاحة العقل ونضوج الفكر وسعة الثقافة ،وغيرها من جوانب العبقرية العربية والإسلامية التي ستتضح بعضٌ من ملامحها من استقراء الباحث لنماذج من توقيعاتهم ودراستها دراسة وصفية بلاغية تطبيقة شاملة ضمن هذا

البحث الذي قُسِّم على جزأين هما:

أ- الدراسة الوصفية تعرف بشكل موجز بالتوقيع الأدبي ونشأته وأنواعه.

ب-الدراسة البلاغية التطبقية تتناول - بشيء من التفصيل - جانب الصور البيانية والأساليب وأحوال الجمل وألوان البديع في فن التوقيعات دلالاتها البلاغية والفنية التي تميزه عن غيره من فنون النثر الكتابي.

(أ) الدراسة الوصفية:

أولاً- التوقيعات لغةً واصطلاحاً :

- **التوقيعات لغةً :**

هوجمع تكسير لتوقيع على وزن "تفعيل" لمصدر الفعل الثلاثي المضعف "وقّع" وجذه الثلاثي المجرد "وَقَــعَ "الدال في عمومه على سقوط الشيء ووقعه ، ففي مقاييس اللغة " الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه يدل على سقوط شيء ، يقال وَقَعَ الشيء وقوعاً فهو واقع... أثر الدَّبَرِ في والتوقيع ظهر البعير، ومنه مايلحق بالكتاب بعد الفراغ "(ابن فارس: 1991م ، ج 6، ص134،133). وأما صاحب الأساس فيذكر المعاني السابقة ويضيف" ومن المجاز حافرٌ مُوَقِعٌ : وقعته الحجارةُ ، ووقعتِ الدابةُ بكثرة الركوب ... وإنه مُوَقِعُ الظهرِ ، ووقّع في كتابه توقيعاً"(الزمخشري: 1998م، ج 2، ص1050) لم يخرج معناه في كل لسان العرب والقاموس المحيط عن المعاني السالفة وزاد صاحب تاج العروس عليها " وقيل مأخوذ من توقيع الدبر ظهرَالبعير ،فكأنّ الموقِّع يؤثّر في الأمر الذي كتب فيه الكتاب مايؤكده ويوجبه" (الزبيدي، تاج العروس: 1965م.،ج 22 ص359) إذن فالتوقيع هو الأثر الذي يحدثه المُوقِّعُ في كتابٍ أوغيره سواء كان بقلم بالنسبة للكاتب أو بمايؤثر على ظهر الدابة أودبرها ممايوضع عليها .

•- التوقيعات اصطلاحاً:

من المعاني الاصطلاحية للتوقيع ما أشار إليه ابن فارس في كلامه السابق حينما قال" ومن التوقيع مايُلحق بالكتاب بعد الفراغ منه" (ابن فارس: 1991م ، ج 6، ص134،133).

ويزيده وضوحاً قول ابن خلدون " وهو أنْ يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفضله ويُوقِعُ

على القصص المرفوعة إليه إحكامها" (ابن خلدون، 2001م، ج1، ص306) ويضيف القلقشندي سبب تسميتها بالتوقيع فيقول: "وأما تسميها بالتوقيع فأصله من توقيع حواشي القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أوالوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب الدست وما يجري مجراهم بما يعتمد في القضية التي رفعتِ القصة بسببها ، ثم أطلق على كتابة الإنشاء جملةً" (القلقشندي ، 1922م، ج1، ص52) فيما نجد المعجم الوسيط يعرف التوقيع بأنه" مايعلقه الرئيس على كتابٍ أو طلبٍ برأيه فيه"(2004م.، مادة وقع) ومما سبق يتضح لنا أنّ التوقيعات هي ردود ولاة الأمر إلى عمالهم أو رعيتهم فيما رفعت إليهم من ُظلامات أو طلبات تدون في رقعة ويسمى مايكتب فيها بالقصة مما يدل على أنّ التوقيعات فنٌ كتابيٌّ ظهر لخدمة الراعي والرعية وهي أقرب ماتكون إلى العرائض في عصرناهذا و " ليست فناً يؤدى مشافهة كالخطابة والمحاورة والمناظرة .. وغيرها من الفنون الشفاهية" (فاعورة : دت، مج 30، ع1و2، ص125) التي عرفها الأدب العربي منذ الجاهلي، كما أنها هي ثمرة من ثمرات تطور الكتابة العربية في العصر العباسي ولذا سميت بعدة أسماء كالقصص والشكاوى والظلامات والرقاع (ضيف: دت، ص141).

ثانياً: نشأة التوقيعات:

الكلام عن نشأة التوقيعات يقودنا إلى الخوض في أثر الثقافة الفارسية في مظاهر الحياة في المجتمع العباسي سياسياً واجتماعياً وثقافياً ،وهذا ما دعا عدداً من الدارسين لهذا الفن إلى عزو ظهوره ومن ثَم تطوره في العصر العباسي إلى هذه الثقافة الوافدة على عاصمة الخلافة في بغداد. وممن ذهب هذا المذهب أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام حيث قال " وقد سال سيل التوقيعات في عهد بني العباس وكان أكثر الكتّاب والوزراء فرساً فساروا على سنن آبايهم وكثُر ذلك حتى أنشئوا فيما بعد ديواناً أسموه ديوان التوقيع "(أمين ، 1996م /1997م.،ج1، ص206) بل تعدّى مرحلة تبني هذا الطرح إلى التشكيك في كل من ينسب من توقيعات إلى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وبني أمية فقال" وقد نقلت إلينا توقيعات في أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية أخشى أنْ يكون كثير منها كان شفهياً فحُوِّر إلى توقيع""(أمين ، 1996م /1997م، ج1، ص206) ويناصره شوقي ضيف في طرحه الأول فيقول: "التوقيعات .. وهي عبارات موجزة بليغة تعوَّد ملوكُ الفرس و وزراؤهم أنْ يوقعوا بها على مايُقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم وحاكاهم خلفاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنيع" (ضيف:دت، ص141) وبالعودة إلى مصادر التوقيعات الأدبية والتاريخية القديمة التي ُذكِرَ بعضٌ منها في التوطئة لهذا البحث يلاحظ القارئ أنها ذكرت تحت مسمى"توقيعات الخلفاء"الراشدين" و"توقيعات بني أمية" مثلما وردت في العقد الفريد ، ونثر الدر وخاص الخاص فمما ذكر من توقيعات الخلفاء الراشدين توقيع الخليفة أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه لمّا كتب إليه خالد بن الوليد رضي الله عنه في وقعة الجندل يستأمره في أمر العدو ،فوقَّع له" أدنُ منِ الموتِ تُوهبُ لك الحياة"(الأندلسي: 1983م ، ج4، ص306) ومثال آخر يمثل توقيعات بني أمية هو توقيع عمر بن عبد العزيز - رحمه الله – حينما كتب إليه عامل حمص بحاجة المدينة إلى حصن، فوقَّع " حصنها بالعدل ، والسلام "(الآبي ، د.ت ، مج4-5، ج5، ص87.) .

وهذان مثالان فقط من توقيعات كثيرة لعصر صدر الإسلام والعصر الأموي يمكن العودة إليها في المصادر السابقة ليتضح للمطلع عليها أنّها تتصادم تماماً مع ما ذهب إليه الدارسان" أمين وضيف "مع عدم إنكار وجود هذا الفن عند الفرس وغيرهم قبل الإسلام ، فابن عبدربه مثلاً يضع موضوعًا في كتابه تحت عنوان" توقيعات العجم" ذكر فيه توقيعات للفرس وسواهم (الأندلسي، 1983م، ج4، ص306). ومن يتمعن في توقيعات العصر العباسي يتضح له نضجها وعمق فكرتها وتطورها بشكل يؤكد أنها ليست مجرد بدايات أو محاكاة لفنون فارسية وافدة بل هي ثمرة محاولات عربية سابقة في العصرين الإسلامي والأموي نضجت على أيدي العباسيين وأضافوا إليها ماجاد به عليهم زمانهم من أساليب الكتابة و فنون النثر من رسائل ديوانية وإخوانية وغيرها مما لها صلة قرابة بفن التوقيعات.

ثالثاً: أنواع التوقيعات:

بالنظر إلى نصوص فن التوقيعات عامة والعباسية خاصة بوصفها فناً كتابيّاً خالصاً لاتخرج أنواع التوقيعات فيها عمايلي:-

1- توقيع بآية قرآنية: كتوقيع أبي العباس السفاح في كتاب عبدالله بن علي عمه إلى عامل تُظُلِّم منه "فوقع له بقوله تعالى" وماكنت متخذ المظلين عضُداً" (الأندلسي1983م ،ج4 ،294.) [الكهف - 51].

2- توقيع بحديث نبويّ: مثلما وقَّع المأمون لبعض أصحابه وقد وافتْه الأموال: يؤمر له بخمسمائة ألف لطول همته ولثمامة بن أشرس بثلاثمائة ألف لتركه مالايعنيه .." (الأندلسي، 1983م، ج4، 294) فعبارة تركه مالايعنيه توظيف منه للحديث الشريف "من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه".وهو حديث حسن رواه الترمذي (الترمذي2011م، ص853 ،854).

3- توقيع بمثل أوحكمة، كما وقَّع أبو مسلم الخراساني إلى عامله ببلخ" لاتؤخر عمل اليوم لغد" (الأندلسي 1983م ، ج4، ص301.)

4- توقيع ببيت شعر فقد وقَّع طاهر بن الحسين إلى أحدهم حينما استبطأه في خراج ناحية، بقول الشاعر: وليس أخو الحاجات مَنْ بات نائماً ***** ولكنْ أخوها من يبيت على رحْلِ (الأندلسي 1983م: ج4، ص305)

5- توقيع بقول مرسل : حيث يدونه الخليفة أو الوزير أو القائد أو الكاتب في أسفل الرقعة أو ظهرها يكون من إنشائه الخاص ، وذلك كتوقيع الوزير يحيى بن خالد البرمكي إلى متظلم في رقعة ليعرض التوقيع على من سكاه : انصفْ من وُلـــيتَ أمره وإلا أنصفه من يلي أمرَك" (الثعالبي دت: ص 90،91.).

(ب) "الدراسة البلاغية التطبيقية "

وفي هذا الجزء من الدراسة يحاول الباحث بيان مدى توظيف الموقِّعين للصور البيانية ، والأساليب البلاغية، وألوان البديع وأثرها الإيقاعي في هذا الفن الكتابي؛ونظراً لازدحام التوقيع الواحد بأكثر من عنصر فنيٍّ فقد يضطر الباحث لتكرار بعض نماذج التوقيعات من أجل تحليلها تحليلاً شاملاً من جوانبها كافة.

أولاً: الصور البيانية ومدى حضورها في فن التوقيعات العباسية:

من طبيعة النثر الوضوح والتوجيه والبعد عن اللغة الخيالية والكنائية وإنْ وجدت فيها قليلة ومحدودة ومن ذلك ما اطلع عليه الباحث من توقيعات العصر العباسي، حيث يعثر القارئ لها على

نماذج ليست بالكثيرة الصور الفنية التي رسمت بها تقتصر على فني الكناية والمجاز المرسل والأول أكثر حضوراً من الثاني، وهذه أمثلة لها:

توقيع جعفر بن يحيى [وزير الرشيد] لمستمنح قد كان وصله مراراً"دعِ الضرع يدرُّ لغيرك كما درّلك" (الأندلسي 1983م، ج4، ص302) حيث كنى بالضرع عن المنح والأعطيات هو من باب الكناية عن موصوف، ومن ذلك توقيعه إلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه "لم نزرعك لنحصدك" ومن صور الكناية عن صفة توقيع هارون الرشيد إلى صاحب المدينة " ضع رجيلك على رقاب أهل البطن فإنهم أطالوا ليلي بالسهاد ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد .." (الأندلسي 1983م ،ج4 ج4، ص303.) حيث كنى على صفة الإخضاع بوضع رجله على رقاب رعيته، من المجاز المرسل نجد العبارة التالية في توقيع مطول لعبد الله بن طاهر إلى عمال له شكاهم الرعية" ... أحسنوا بالإكرة فإنّ الله تعالى جعل أيديهم لنا طعاماً وألسنتهم سلاماً وظلماً وحراماً .." (الأندلسي 1983م، ج4، ص303).

فجعل أيديهم طعاماً صورة مجازية مرسلة باعتبار السببية وبالمثل جعل ألسنتهم سلاماً وظلماً وحراماً باعتبار أنّ هذه الأمور قد تكون الألسنة سبباً في حصولها مدحاً لنا أوذماً .

فمما سبق يتضح قلة حضور الصور البيانية ، وربما يمكن إرجاع ذلك طبيعة لغة النثري التي يكون الأصل فيها الإفادة وتغذية العقل والعناية بتناول الحقائق والأفكار والاهتمام بتنسيقها تنسيقاً منطقياً (الشايب، دت، ص44)حيث يمثل النثر لغة العقل ويقرر قضاياه ويسجل نتائجه (الشايب، دت، ص35) فضلاً على أنّ التوقيعات عامة يغلب عليها طابع الحكمة والإصلاح والتوجيه والتهذيب وكل ذلك جعل لغة الحقائق تغلب على لغة الخيال وصورها وتقلل حضورها داخل نص التوقيعات.

ثانياً: الأساليب البلاغية:

1- الأساليب الخبرية ومدلولاتها البلاغية:

يتنوع استخدام الأساليب الخبرية ومدلولاتها في فن التوقيعات العباسية من حيث الدلالة على الثبوت أو الدوام والاستمرار ومن حيث اسمية جملها وفعليتها ويتضح ذلك من النماذج التالية:

- توقيع الخليفة المهدي إلى صاحب خرسان في أمر جاءه:" أنا ساهرٌ وأنت نائمٌ" حيث أفادت الجملة الأولى الثبوت بأصل وضعها ، فيما خرجت الثانية إلى الدوام والاستمرار بدليل قرينة الذم المعنوية التي تجاوز فيها الموقع مجرد إثبات النوم إلى المخاطب إلى ذمه والتعريض به وبتقصيره الجملة الاسمية هنا الثبوت،وفيما أفادت في توقيعه لمستنصح" بعض الصدق قبيح" (الأندلسي 1983م ،ج4، ص295) الاستمرار والدوام بدليل القرينة المعنوية التي تفيد الذم، أي في عمله.

- توقيع الوزير جعفر بن يحيى في قصة محبوس بقوله تعالى" ولكلِّ أجل كتاب"(الثعالبي، دت، ج4 ، 302) حيث أفادت ذمه لبعض الصدق المؤدي للمفسدة.

ومماهو إخبار يفيد التجدد بقرائن لفظية ماورد في توقيع للوزير جعفر بن يحيى في قصة محبوس " العدلُ يوبقه، والتوبةُ تطلقُه" (الأندلسي 1983م، ج4، ص296) فمجيء الجملتين الخبريتين فعليتين أخرجهما من الثبوت إلى التجدد، ومثله توقيع هارون الرشيد إلى عامل خرسان: " إنّ الملوك يؤثر عنهم الحزم" (الأندلسي 1983م ، ج4 ،302) حيث جاء خبر إنّ جملة فعلية، وهي" موضوعة لإفادة الحدوث في زمن مخصوص مع الاختصار" (ناصف وآخرون 2012م، ص28) ومن أمثلة الجملة الفعلية المنفية توقيع جعفر بن يحيى إلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه" لم نزرعْك لنحصدك" (الأندلسي1983م، 4، ج302) حيث أفادت النفي الاستمرار التجددي، بالفعل المضارع المنفي وذلك بمعونة القرينة لابحسب الوضع (الهاشمي ،1999م ،ص66) ومن القرئن التي يخرج به الأسلوب الخبري في الجملة الفعلية عن الأصل إفادته التعجب ومن ذلك توقيع العباس السفاح إلى أبي

سلمة الخلال حينما استأذنه في تولية قوم من الحاشية الشيعة فوقع "يا أباسلمة ما أقبح لنا أنْ تكون لنا الدنيا

وأولياؤنا خالون من حسن آثارنا"(الثعالبي :دت ،ص87) وغير ذلك مما يطول سرده من النماذج الراقية التي تنوعت دلالات الإخبار فيها من بقائها على أصل وضعها وخروجها عنه مما اتقى بأسلوبها الخطابي إلى مدارج البلاغة ومراتب الخطاب المؤثرالبليغ.

2- الأساليب الإنشائية وصيغها البلاغية:

من المعلوم أنّ الإنشاء نوعان طلبي وغيرطلبي، وما يدخل في اهتمام البلاغيين منهما هو الطلبي الذي يعرفونه بأنه" مااستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب" (الجارم وأمين، 2012م، ص309) وله صيغ كثيرة منها الأمر والنهي والاستفهام وغيرها ، وهذا بيان لمقدار استخدام الموقعين العباسيين لهذا الأسلوب وصيغه المختلفة مقرونة بإيضاح مدى بقاء هذه الأساليب والصيغ على معناها الأصلي وخروجها عليه لمعان أخرى يدل عليها السياق وقرائن الأحوال وذلك كمايلي:

أ- أسلوب الأمر:

يعرفه البلاغيون بأنه:" طلب الفعل على وجه الاستعلاء" (ناصف وآخرون 2012م ، ص31) وله صيغ منها فعل الأمر والمضارع المقرون بلام الأمر وأمثلة ذلك في التوقيعات مايلي:

- وجد قع أبوجعفر المنصور خطأً في كتاب أرسله له عامله في حمص فوقع له في أسفله" استبدلْ بكاتبك وإلا أستبدل بك" (الأندلسي 1983م ،ج4، ص295).

- ومن ذلك توقيع هارون الرشيد إلى صاحب خرسان بـ" داوِ جرحك لايتسع" (الأندلسي 1983م،ج 4، ص296).

- ومثلهما ماوقع المهدي في قصة رجل من الغارمين" خذْ من بيت مال المسلمين ماتقضي به دينك وتقرّ به عينك" الأندلسي 1983م، ج،4، ص295).

- ونظيرذلك توقيع عبد الله بن المعتز في رقعة لأحدهم ينسب وكيله إلى الخيانة والسرقة :" اغنِ من وليته عن السرقة فليس يكفيك من لم تكفه" (الثعالبي: دت، ص90).

فهذه الأساليب الأمرية الواردة في صيغة فعل الأمر وإنْ كانت صادرة في ظاهرها من الأعلى إلى الأدنى وصفة الإلزامية في ظاهرها، فإنها تختلف أحوالها عند التمعن في صيغها حيث تحتمل التهديد في المثال الأول والنصح في الثاني وإفادة الإباحة في المثال الثالث والنصح في الرابع بدليل السياق والقرائن الحالية التي صيغت فيها هذه الأساليب .

ب- أسلوب النهي:

وهو" طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة وهي المضارع مع لا الناهية"(العثيمين: 1434هـ ،ص93.)، ولايختلف كثيراً عن سابقه من حيث الاستخدام المزدوج فيما بين يدينا من نصوص توقيعية -فمن ذلك توقيع أبي جعفر المنصور في كتابه إلى عبد الله بن علي عمه بـ" لاتجعلْ للأيام فيّ وفيك نصيباً من حوادثها" (الأندلسي 1983م، ج4، ص294) حيث إمكانية إفادة النصح واردة وإنْ صدر من الأعلى إلى الأقل منه مكانة لاسناً.

- وتوقيع أبي مسلم الخرساني إلى ابن قحطبة " لاتنس نصيبك من الدنيا" (الأندلسي1983م، ج4، ص301) حيث خرج إلى الحض والترغيب.

- ومثله ماوقع إلى عامله ببلخ:" لاتؤخرْ عمل اليوم لغد"(الأندلسي1983م ،، ج4 ، ص 301)

- ووقع المأمون في قصة متظلم من حميد :ياأباحامد ، لاتتكلْ على حسن رأيّ فيك ،فإنك وأحد رعيتي عند في الحقّ سواء"(الأندلسي1983م، ج4 ، ص 301) ففيه نهي وتوبيخ صادران من الأعلى إلى الأدنى، مع ملاحظة أنّ أفهام الناس تختلف في مثل هذه المسائل الذوقية فهي ليست واحدة فما يراه هذا نهي حقيقي يراه الآخر للإرشاد وهكذا (العثيمين: 1434هـ ، ص95،96) .

ج- أسلوب التمني:

ويعرف بأنه" طلب سيء لايرجى حصوله ، لكونه مستحيلاً أو بعيد الوقوع والأداة الأصلية للتمني"ليت" وقد يُتمنى بغيرها من أدوات التمني غير الأصلية مثل هل، لو ولعل" (ناصف وآخرون 2012م، ص 38) ومن أمثلة التوقيعات التي تمني فيها بـ"ليت".

- توقيع المهدي لرجل من بطانته استوصله:" ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك"(الأندلسي1983م ، 4ج،ص295.) .

- ومثله هذا الجزء من توقيع عبد الله بن طاهر إلى عمالٍ له شكاهم الرعية :" قد قدمت إليكم الأعذار واحتجت إليهم الأنذار وليت العتاب بالغ مأأردت" (الثعالبي، دت، ص89) فكلتا الجملتين الإنشائيتن تمني بهما بـ"ليت" على معناها الحقيقي ولم تخرج إلى معانٍ آخر .مع ملاحظة ندرة استخدام هذا الأسلوب فباستثناء هذين التوقيع لم نعثر على أمثلة غيرها.

د- أسلوب النداء:

وهو " طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة ينوب كل حرف منها مناب الفعل أدعو"(عتيق ،2006م،ص91)، وله أدوات منها الياء والألف وهيا وغيرها . ومن أمثلتها في توقيعات عصربني العباس الأول مايلي"

- توقيع المأمون في قصة متظلم من عمر بن مسعدة بـ" ياعمرُو عمِّر نعمتك بالعدل،فإنّ الجور يهدمها" (الأندلسي1983م، 4ج، ص298.).

- ومنها توقيعه كذلك في قصة متظلم ": يا أباثابت ، ليس بين الحق والباطل قرابة" (الأندلسي 1983م، 4ج، ص298).

- وكتب مسلم بن قتيبة إلى المهدي يسأله أنْ يشرفه بالإذن له بتقبيل يده فوقع له" يا أبا قتيبة أنا نصونك عنها ونصونها عنك" (الثعالبي، دت،ص88.)

- ووقع ذوالرياستين [الوزير الفضل بن سهل] إلى طاهر بن الحسين: يانصف إنسان ، والله لئن أمرتُ لأنفذتُ ولئن أنفذتُ لأبرمنْ .." (الآبي ، دت، مج 4-5، ج5، ص67).

من التوقيعات السابقة يتضح أنّ الثلاثة الأولى منها نودي فيها بالياء ولم يخرج النداء فيها عن معناه الأصلي ، فيما خرج في التوقيع الرابع وهو نادر الورود فيما اطلع عليه الباحث من توقيعات زمن الدراسة.

هـ - أسلوب الاستفهام:

وهذا الأسلوب يعرف بأنه" طلب العلم بشيء" (ناصف وآخرون 2012م، ص 33) وله أدوات كثيرة منها الهمزة وهل، ما ،و من وكيف وكم، وأي وغيرها" (الصعيدي، 1999م ، ج2، ص30)

ويمتاز هذا الأسلوب بأنه محفز لذهن باعث له على التفكير والتذكُّر ومع ذلك يندر وروده في التوقيعات العباسية قيد الدراسة ومانجده في مصادر التوقيعات المعتمدة في هذا البحث مثل العقد الفريد و نثر الدر ومختار ومن نثر الدر وخاص الخاص وتحفة الوزراء والوزراء والكتاب لا يتعدّى هذا التوقيع.

- توقيع المأمون إلى علي بن هشام في أمر متظلم :" من علامة الشريف أنْ يظلم من فوقه ولا يظلمه من دونه ،فأي الرجلين أنت؟

فهو يسأله محفزناً ذهنه أنْ يحدد أي الرجلين هو؟ من يظلم من فوقه أو من يظلمه من دونه! لكونها مشتركان في الظلم الذي يعمهما وهذا ما تدل عليه أداة الاستفهام (أي)" (الصعيدي، 1999م، ج2، ص36.) .

ومما سبق يتضح كثرة استخدام فعل الأمر بصيغة فعل الأمر ومعناه الأصلى تارة وماخرج إليه من معانٍ يحدده السياق تارة أخرى ثم تأتي بقية الأساليب النهي الذي كثر فيه الخروج عن معناه الأصلي، فالتمني الذي ظل على معناه الحقيقي ، ثم يليه النداء ظل على معناه الحقيقي باستثناء توقيع واحد خرج للتعجب، أما الاستفهام فهو نادرة جداً عند موقعي العصر العباسي الأول، حيث لم نعثر سوى على توقيع واحد ودت فيه صيغة إنشائية استفهامية، ويمكن إرجاع كثرة أساليب الأمر لطبيعة التوقيع الذي يكتبه علية القوم إلى من دونهم من موظفي الدولة ومن دونهم من العامة على صيغة الأوامر والتعليمات والمراسيم السلطانية والرئاسية.

ثالثاً: أحوال الجملة في فن التوقيعات:

من حيث: "الحذف والذكر، التقديم والتأخير ، القصر ، الإيجاز ، المساواة".

أ- الحذف والذكر:

يعرف عبد القاهر الحذف بقوله هو:" بابٌ دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر ترى به ترك الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لمتنطق وأتمّ ماتكون بياناً إذا لم تبن"(الجرجاني: 1992م، ص156)هو يكثر في فن التوقيعات لاسيما حذف المفعول به ومنذلك مايلي:

- توقيع جعفر بن يحيى على ظهر كتاب لعلي بن عيسى:" حبب اللهُ إليك الوفاء- يا أخي – فقد أبغضته ، وبغضّ إليك الغدر فقد أحببته إني نظرت في الأشياء لأجد فيها مايشبهك فلمّا لم أجدْ رجعتُ إليك فشبهتك بك..."(الآبي ،دت،،مج4-5،ج 82،5 .). والتقدير لم أجد مايشبهك، وترك ذكره أفيد لداعي بلاغي لطيف وهو إفادة العموم.

- منه توقيع عبد الله بن يزداذ إلى عاملٍ اعتذر بكفايته وزاد: "ياهذا أسفت وما أنصفت وأوجفت حتى أعجفت وأذللت حتى أمللت فاستصغر مافعلت تبلغ ما أملت" (الثعالبي :دت ،ص91) فالحذف يمكن تقديره كمايلي: (ماأنصفت نفسك، وأعجفت جسمك، أذللت نفسك، وأمللت غيرك، مافعلته الضمير الهاء، وما أملت خيراً) حيث نزلت هذه الأفعال المتعدية منزلة الفعل اللازم المكتفي بمرفوعه بحيث أصبحت تفيد مجرد ثبوت الفعل للفاعل أونفيه عنه (عتيق : 2006م، ص103) وهذه لطيفة بلاغية ثانية تضاف لسابقتها.

- وسنتعرف على أنوع أخرى من الحذف في أسلوب إيجاز الحذف في مكانه لاحقاً.

ومن مواضع الذكر الذي هو الأصل في الكلام والجملة من الحذف فقد يذكر الكلام للاحتياط وضعف التعويل على القرينة ومن ذلك ماورد في:

- توقيع جعفر بن يحيى ذكره لعبارة (ﷺ) بعد اسم نبي الله يوسف حينما وقع في قصة رجل سأله أنْ يُقفل ابنه الذي طالت غيبتُه عنه:" غيبة يوسف ﷺ أطول" (الأندلسي 1983م، ج4، ص302) فلولم يذكر لظنّ السامع أنّ المقصود شخص آخر.

- ومن ذلك توقيع الفيض بن أبي صالح في رقعة متعذر تائب: "التوبة للنب كالدواء للمريض فإنْ نصحت توبته اتمّ الله شفاءه وإنْ تكن الأخرى أدام الله داءه" (الثعالبي ، د،ت، ص91) حيث جاء ذكر التوبة للمرة الثانية من باب إظهاراً لقدْرهاوعظمتها.

التقديم والتأخير:

وهو باب لطيف أيضاً ومن خصائص لغة الضاد الفريدة وصفه عبد القاهر بقوله" بابٌ كثيرُ الفوائد ،جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية ولايزال يفترُّ لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفه، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك أنْ قُدّم فيه شيءٌ وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان" (الجرجاني، 1992م، ص106) وفن التوقيعات مليء بالأمثلة الكثيرة للتقديم والتأخير ومن ذلك:

- توقيع المهدي إلى يوسف البرم حين خرج بخرسان " لك أماني ومؤكد أيماني" (الأندلسي 1983م، ج4، ص302) حيث قد خبر المبتدأ عليه للاهتمام بالمخبر عنه تعجلاً بالمسرة إلى قلبه.

- ووقع الوزير جعفر بن يحيى في قصة رجل شكا عُزوبةً "الصومُ لك وجاءٌ" (الأندلسي 1983م، ج4، ص 296) حيث قدم شبه الجملة (لك) وأُخر الخبر عنه؛ للعناية بأمرالمخاطب.

- توقيع المأمون في قصة متظلم من أبي عباد " ياثابت ، ليس بين الحق والباطل قرابة" (الأندلسي 1983م، ج4، ص302) حيث قدم خبر ليس أخر اسمها وحقه التقديم للإشعار بأهمية المتقدم.

- توقيع المهدي في قصة رجل شكا الحاجة بـ" أتاك الغوث" (الأندلسي1983م ، ج4، ص295) حيث قدم المفعول به وأخر الخبر لداعٍ بلاغيٍّ هو الاهتمام بشأنه. وهذا النوع من التقديم أي: [تقديم المفعول به عن فاعله]مما تزخر به توقيعاتُ العصرِ العباسي الأول لما فيه ولطائف جمة وأسرار خفية.

- توقيع أبي مسلم إلى أبي العباس في يزيد بن عمربن هبيرة :" قلّ طريقٌ سهلٌ تُلْقى فيه الحجارةُ إلا عاد وعْراً واللهِ لايصلح طريق فيه ابن هبيرة أبداً" (الأندلسي 1983م، ج4، ص301) حيث قدم فيه شبه الجملة(فيه)على نائب الفاعل وحقه أنْ يلي فعله لأهمية المتحدث عنه أي: [الطريق]. إلى غير ذلك من النماذج التي يطول الحديث لسردها.

القصر:

يعرفه أصحاب المعاني بقولهم:" تخصيص شيء بشيء أو أمرٍ بأمرٍ بطريقٍ مخصوصٍ" (عتيق، 2006م، ص118) وهذه الطريق المخصوص تكون بإنما أو حرف نفي مع إلا أو تقديم ما حقه التأخير مثلما مرَّ بنا في الأمثلة السابقة، وهي أكثر مانعثر عليه فيما بين أيدينا من نماذج توقيعية، ومن ذلك:

- توقيع هارون الرشيد إلى صاحب المدينة :" ضعْ رجليك على رقاب أهل هذاا البطن ،فأنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد ونفوا عن عينيّ لذيذ الرقد" (الأندلسي1983م، ج4، ص297.)، حيث قدم شبه الجملة (عن عينيّ) على المفعول به لذيذ الرقاد؛ لإفادة الحصر أي [حصر نفي لذيذ الرقاد عن عينيه].

- توقيع الأمون إلى الرستمي في قصة متظلم منه: "ليس من المروءة أنْ تكون آنيتك من ذهب وفضة وغريمك خاوٍ وجارك طاوٍ" (الأندلسي 1983م، ج4، ص 298) حيث قدم خبر ليس شبه الجملة (من المروءة) على اسمهاالمصدر المؤول من (أنْ تكون آنيتك ..) للغرض البلاغي ذاته أي إفادة الحصر.

- توقيع الرشيد إلى عامل خراسان :"إنّ الملوك يُؤثر عنهم الحزمُ" (الأندلسي1983م ، ج4، ص296) حيث قدّم شبه الجملة على نائب الفاعل لحصر الحزم على الملوك دون سواهم بوصفه مأثرة يمتازون بها دون سواهم وهذا لعمري قمة البلاغة ورجاحة العقل وقوة المنطق.

- ومن التوقيعات القرآنية البليغة في هذا الباب توقيع أبي جعفر المنصور إلى (صارورة) بقوله تعالى:" ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا" (الأندلسي1983م ، ج4، ص294) حيث قدم الخبرشبه الجملة (لله) على مبتدئه (حجٌ) لإفادة حصرهذه الفريضة المطالب بها لله وحده.

- توقيع هارون الرشيد إلى عامله في مصر: "احذر أنْ تُخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأيك مني ملاقبل لك به، ومن الله أكثرمنه" (الأندلسي1983م ، ج4، ص296) حيث قم المفهول به الضمير المتصل بـ(يأتيك) على الفاعل (ما) الموصولية ، لإفادة الحصر، وغير ذلك كثير.

أ- الإيجاز:

وهو من أخص خصائص التوقيعات الأدبية ومقياس من مقاييسها الفنية ويرعف علماء المعاني بقولهم" جمع المعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة مع الإبانة والإفصاح" (عتيق، 2006م، ص142) وقد أفضى هذا الأسلوب على التوقيعات الأدبية كثافة اللغة والاقتصاد في استخدام الألفاظ واختزال معانيها، بل تعدى ذلك مايرتجلونه من توقيعات إلى اختيارهم واقتباسهم للنصوص القرآنية التي يضرب بها المثل في هذا الباب ومن ذلك :

- توقيع المهدي في قصة رجل حُبس في دم فوقع له بقوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب"، لمناسبتها لقصة الرجل من جانب ، وبلاغة إيجازها من جانب آخر لما فيها من أسرار بلاغية تخلو منها مقولة أهل الجاهلية (القتل أنفى للقتل) (القزويني: 2001م، ص2014، 2015).

- ومن توقيعاتهم المرتجلة توقيع الفضل بن سهل إلى حاجبه:بـ" تمهّلْ تسهلْ" (الأندلسي1983م، ج4، ص303) وتوقيعه لصاحب الشرطة: "ترفقْ تُوفق" (الأندلسي 1983م ،ج4، ص303).

- وتوقيع الحسن بن سهل ذي الرياستين في قصة امرأة حُبس زوجها: الحقُّ يحبسه والإنصاف يطلقُه" (الأندلسي 1983م، ج4، ص304).

وكل ماتقدم من إيجاز القِصر أوجيز فيها الكلام مراعاة لمقتضى الحال من جانب وطلباً لبلاغة القول من جانب آخر إذا البلاغة في الإيجاز كمايقول أرباب هذا العلم الشريف.

ومن أمثلة إيجاز الحذف النماذج التالية:

- وتوقيع عبدالله بن المعتز إلى الكتّاب وقد ضاقت بهم الكواغد في أيام المستعين والمعتز: دققوا الأقلام وأوجزوا الكلام فإنّ القراطيس لاتُرام والسلام .." (الثعالبي، دت، ص90) حيث حث الكتاب على الإيجاز سلوك كل مايؤدي إلى ذلك ومن دقيق الأقلام وأوجز هو نفسه في آخر توقيعه حيث اكتفى من تحية السلام المعتادة بكلمتين فقط هما(و) و (السلام ..). ولم يكن وحده الذي تفطن لهذه المزية في الكتابة البليغة عامة بل أثر عن الكاتب عمرو بن مسعدة ولوعه بالإيجاز في كتاباته وحثه للكتّاب على هذه الفضيلة حتى قال لهم" إذا استطعتم أنْ تجلعوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا" (ضيف ، دت، ص 554.) ومن هنا فلا عجب أنْ يغدو مضرباً للمثل في الإيجاز.

- ومثله توقيع ذي الرياستين إلى طاهر بن الحسن: يانصف إنسان واللهِ لئن أمرتُ لأُنفذنّ ، ولئن أنفذتُ لأُبرمنّ ولئن أبرمتُ لأبْلغنّ" (الآبي ، دت،مج4- 5، ج5، ص101) فهذا التوقيع يحوي جملة من إيجاز الحذف هي:

1- حذف المبتدأ المتأخر [قسمي] المقدر بعد (واللهِ) الخبر شبه الجمل المقدم.
2- حذف المفعول به في (أمرتُ) الذي يمكن أنْ يقدربـ[أيأكان] أوماشابه.
3- حذف المفعول به كذلك في (لأُنفِذنّ) الذي قد يقدر بـ[أمري] ، ومثله لأبرمنّ أي [رأيّ] وكذلك (لأبْلُغنّ) أي [مرادي].
4- كما يمكن اعتبار المقسم به لفظ الجلالة (واللهِ)محذوفاً بعد لام القسم في الأفعال السابقة باستثناء (لئن أمرتُ).وكل ماسبق جاء بطريق إيجاز الحذف الذي أغنى عن فضول الألفاظ وضم تحت عباءةهذه الألفاظ القليلة معاني كثيرة تطلب جمعها في النقاط الأربع السابقة.

المساواة:

وتعرف بأنها " تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له" (العثيمين، 1434هـ، ص197) دون زيادة أو نقصان وأمثلتها في فن التوقيعات العباسية كثيرة منها:

- توقيع العباس إلى أخيه في بعض الجناة: "إذا كان العلم مفسدة كان العفو معجزة" (الثعالبي د،ت، ص87) .

- توقيع المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جلاءه:"أنا ساهر وأنت نائم" (الأندلسي 1983م ،ج4، ص295).

- توقيع الفضل بن سهل إلى تميم بن مخرمة: "الأمور تمامها والأعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها .." (الآبي، دت، مج4- 5، ج5، ص74) حيث جاءت المعاني على قدر الألفاظ والألفاظ على قدر المعاني دون زيادة أو نقصان (عتيق، 2006م، ص142).

الإطناب:

أما الإطناب فهو منافٍ لهذا الفن الكتابي الموجز العبارات المكثف الصياغة، ومع ذلك قد يعث المتتبع لفن التوقيعات الأدبية في العصر العباسي الأول نصوصاً خلاف ذلك - وإنْ كانت لاتشكل شيئاً ذا بال مقارنة بالكثرة الكاثرة من التوقيعات الأدبية التي يمتاز بالإيجاز الشديد من مجملها إلا أنها موجودة ولعلّ أكثرها أهمية توقيع مطول أورده الجهشياري في كتابه "الوزراء والكتاب" ونسبه إلى المأمون وقعه إلى الفضل بن سهل مما ورد فيه "وذكر عيسى بن محمد أنه رأى توقيعاً بخط المأمون للفضل بن سهل: [منه] "أغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله وإقامة سلطاني، فرأيت أنْ أغنيك، وسبقت الناس من الحاضر كان لي، والنائب كان عنّي، فأحببتُ أنِ أسبق إلى الكتاب لك بخطي .." (الجهشياري ،1938م، ص306) إلى أنْ يصل إلى قوله: ".. وكتبتُه بخطي سنة ستٍ وتسعين ومئةٍ" (الجهشياري، 1938م، ص306). حيث بلغ أكثر من عشرة أسطر، وهذا طول غير مألوف في فن التوقيعات عامة. ونخرج مماسبق بنتيجة مفادها ثراء التوقيعات من الناحية الأسلوبية البلاغية من خبر وإنشاء وذكر وحذف وتقديم وتأخير وقصر وإيجاز وغيرها فيما طغى الإيجاز على أغلب بقية الأساليب.

ثالثاً: ألوان البديع وأثرها الإيقاعي في فن التوقيعات الأدبية:

إنّ التوقيعات الأدبية بيئة خصبة لألوان البديع المختلفة لكونها فناً نثريٌّاً كتابيّاً ،حيث يجد المدقق في نصوص التوقيعات العباسية أنّ ألوان البديع فيها تجاوزت دور التحسين والتزيين اللفظي والمعنوي إلى اكساب بنية التوقيع خفة على السمع وجرساً موسيقياً إيقاعياً مميزاً جداً مما جعلها أكثر رسوخاً في ذهن قارئها وعقله وتأثيراً على عواطفه واستمالةً لشغاف قلبه ،وهذا استعراض لبعض الألوان البديعية

التي لفتت نظر الباحث بحضورها في ثنايا التوقيعات التي اطلع عليها ودعته إلى معالجتها من الناحيتين البلاغية والصوتية ،وذلك على النحو التالي:

***- ألوان البديع في فن التوقيعات الأدبية:**

المحسنات المعنوية:

وسيقصر الباحث منها على ثلاثة منها هي: (المطابقة والمقابلة واللف والنشر).

أ- المطابقة:

وقد تسمى التطبيق والطباق والتضاد في اصطلاح علماء البديع وتعرف بأنها" الجمع بين الضدين أوبين الشيء وضده في كلام أو بيت شعر" (عتيق، 2006م، ص53) والتوقيعات مجال رحب لهذا اللون البدعي ومن ذلك: التضاد بين (الحاضر/ الغائب) ،(قبضني / بسطني) من توقيع المأمون المطول إلى الفضل بن سهل حيث وقع بـ" وسبقت الناس من الحاضر كان لي والغائب كان عني .. فإنّ حولي وقوتي ومقدرتي وقبضي وبسطي به" (الجهشياري، 1938م، ص306) والتضاد بين (إسراعنا/ إبطائنا) الوارد في توقيع المهدي من بطانته استوصله " ليت إسراعنا إليك يقوم بإطائنا عنك "، كذلك بين إليك / وعنك) حيث التضاد بين انتهاء (الغاية) في إلى والتجاوز في (عن) ومن تضاد كذلك نجد (يحبسه / يطلقه) في توقيع الحسن بن سهل لامرأة في قصة محبوس "العدل يحبسه والإنصاف يطلقه" (الأندلسي 1983م ،ج4، ص304.) ، (أنبتته / حصدته) من توقيع هارون الرشيد في قصة رجل من البرامكة "أنبتته الطاعةُ وحصدته المعصية" (الأندلسي 1983م، ج4، ص296) وكذا (الطاعة/ والمعصية) من التوقيع نفسه، و (والآخرة / الدنيا) في توقيع الرشيد إلى يحيى بن خالد: "الحكم الذي رضيته في الآخرة لك ، وهو أعدى الخصم في الدنيا عليك ، وهومن لايُردُّ حكمه ولايُعرف قضاؤه" (4 الأندلسي 1983م، ج، ص297، ص298) وهنا نجد ثراء التوقيعات العباسية بهذا اللون البديعي المثير للذهن والداعي له إلى التنبه بثنائيتي الإيجاب والسلب ورعة حضورها بقوة في هذا الفن النثري الكتابيّ الرفيع.

ب- المقابلة:

وهي "أنْ يؤتي بمعنيين متوافقين أومعانً متوافقة ثم بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب" (عتيق 2006، ص59) ومن ذلك (شكوت / فأشكيناك ، عتبت / فأعتبناك) من وتوقيع أبي جعفر المنصور إلى عبد الحميد صاحب خراسان (الأندلسي 1983م، ج4، ص294) حيث قابل اثنين باثنين، ومثلها (أسرفت في مديحك / فقصرنا في حبائك) الواردة في في توقيع االوزير جعفر بن يحيى في قصة رجل شكا بعض عمّاله (الثعالبي، دت، ص90) ومنها كذلك (لوقبلت الهدية ليلاً / لقبلتها نهاراً) .

ومن توقيع عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شيب (الأندلسي1983م ،ج4، ص298.) ومن ذلك توقيع المهدي في قصة متظلم منعمرو بن مسعدة " (ياعمرو، عمّرْ نهمنك بالعدل/ فإنّ الجور يهدمها) (الثعالبي دت، ص89) العقد ، حيث قابل بين (عمّرْ / يهدمها) و (العدل / الجور) وغير ذلك مما يطول سرده والوقوف عنده.

ج- اللف والنشر:

وقد يطلق عليه البلاغيون الطي والنشر وهو:" ذكر متعدد على التفصيل أوالإجمال ، ثم ذكر واحد من غير تعيين ثقة بأنّ السامع مردُهُ إليه بعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أوالمعنوية" (الأندلسي 1983م ، ج4، ص298) ومن التوقيعات العباسية التي اطلع عليها الباحث هذا التوقيع الذي وقع به المأمون إلى الواقدي، وقد كتب يذكر ديناً عليه ويستمنح :" فيك خصلتان سخاء وحياء :أما السخاء فهو الذي أطلق

يدك فيما ملكت، وأما الحياء فهو الذي حملك أنْ ذكرت بعض دينك دون كلِّه وقد أمرتُ لك بضعف ماكتبت ، فزدْ في بسط يدك فإنّ خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة" (عتيق، 2006 ، ص122) حيث نجده قد أجمل مافيه من الخصال في اثنتين هما (سخاء / حياء) ثم راح ينشرهما ويفصلهما تباعاً، كما يمكن عد هذا المحسن تقسيماً؛ لكونه فيه ذكر لمتعدد وإرجاعٌ مالكل إليه على التعيين (العثيمين، 1434هـ، ص 347).

المحسنات اللفظية:

وسيكتفي الباحث بثلاثة محسنات منها فقط هي(الجناس والسجع والموازنة) .

أ- الجناس:

والجناس محسن لفظيٌّ يكثر حضوره في فن التوقيعات العباسية - قيد الدراسة – لما له من صفة تكرارية في اللفظ ملفتة للذهن ؛ ولذا يعرفه البديعيون بقولهم هو أنْ:" يتشابه اللفظان في النطق ويختلفان في النطق ويختلفا في المعنى وهو نوعان: تام، ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة هي نوع الحروف وشكلها وعددها وترتيبها، وغير تام : هو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدمة" (الجارم وأمين 2012م، ص288). ومن أمثلة الجناس التام الذي اتفقت فيها الكلمتان لفظاً واختلفتا معنى مثل (ِاستبدلْ / و اِستُبْدل) و (توقيع أبي جعفر المنصور إلى صاحب حمص:" اِستبدلْ بكاتبك وإلا اِستُبْدل بك" (عتيق، 2006م، ص59) ومن الجناس الناقص "كثُر شاكوك و قلّ شاكروك" الواردة في توقيع جعفر بن يحيى إلى رجل شكت أحد عماله (الأندلسي 1983م ،ج4، ص294) حيث جاء الاختلاف في حرف (الراء) الخالية منه (شاكوك) والموجود في (شاكروك)، مثله من الجناس التام توقيع المأمون بـ(رافع اسم العلم و/ رافعك اسم الفاعل من رفع) في توقيعه إلى نصر بن يسار: "يا أبا رافع إنّي رافعك إليّ ومظهرك من الذين كفروا" (الثعالبي دت، ص90) حيث اتفقا في عدد الحروف واختلفا معنى، ومن الجناس الناقص (اكفني/ كفيته) من توقيع المنصور في قصة رجل شكا إليه بعض عماله:" اكفني أمره وإلا كفيتُه أمرك" (الأندلسي1983م، ج4، ص298) وغير ذلك كثير.

ب- السجع:

وهو" توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد" (الثعالبي دت، ص89) وهومن أكثر أنواع البديع حضوراً في فن التوقيعات ومن ذلك توقيع إبراهيم بن العباس في ظهر رقعة " إذا كان للمحسن من الحق مايقنعه وللمسيء من النكال مايقمعه، بذل المحسن الحق رغبةً وانقاد المسيء له رهبةً" (الأندلسي 1983م، ج4، ص298) حيث اتفقت الفواصل وزناً وروياً في (يقنعه/ يقمعه/ رغبةً/ رهبةً). وهذا مايسمى مرصعاً بسبب" مقابلة كل فقرة نثر .. بلفظة على وزنها ورويها" (عتيق، 2006م ص153).

ومنه توقيع يحيى بن خالد في تهديد من شكى إليه ظلمُه: " بئس الزادُ إلى المعاد ظلم العباد" (الثعالبي ،19941م، ص99) ومن ذلك الأمثلة الواردة في توقيع علي بن عيسى على قصة لابن قرابة العطار: "من تحقق بالوزراء، وجالس الأمراء، وداس بُسُط الخلفاء وماثل الكبراء ، وأمر ونهى في مجالس الرؤساء بعقلٍ يسيرٍ وفهمٍ قصيرٍ ورأيٍ حقيرٍ وأدبٍ صغير، كان خليقاً بالنكبة وحرياً بالمصيبة وجديراً بالمحنة، وأنا أتكلم إذا حضرني الكلام فيك بمايقربني إلى الله" (الآبي، دت، 3،5 ج5 ، ص68).

فكله من جناس السجع المرصع باستثناء(خليقاً /حرياً/ جديراً) فهذه الثلاثة من جناس المطرّف ؛ لاختلاف الفواصل وزناً واتفاقها روياً (عتيق 2006، ص153) .

ج - الموازنة :

وتعرف بأنها" تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية" (عتيق 2006، ص153) ومن ذلك توقيع هارون الرشيد في قصة محبوس: "من لجأ إلى الله نجا" (عتيق 2006، ص169) (فلجأ / ونجا) تساوتا في الفاصلتين دون التقفية، فالأولى انتهت بهمزة قطق والثاني انتهت ألف ممدود ة، ومن ذلك نجده في توقيع جعفر بن محمد إلى أبي صالح بن يزداذ " لم أوخر ذكرك تناسياً لحقك ولا إغفالاً لواجبك ولا إرجاءً لمُهِم أمرك ؛ولكني رقبت اتساع الحال وانفساح الأعمال لأخصّك بأسناها خطراً وأجلها قدْراً" (الأندلسي 1983م،ج4، ص296) وهي: (إغفالاً/ إرجاءً)،(اتساع /انفساح).

ومن الملاحظ على التوقيعات الأدبية هو خلوها من محسنات معنوية مهمة مثل المبالغة والتورية وغيرها فيما غزارتها في جانب المحسنات اللفظية التي اكتفى الباحث بذكر بعضها لكثرة أمثلتها ؛ويكمن تبرير هذا الأمر ولاسيما في خلو التوقيعات من فني المبالغة والتورية إلى طبيعة لغة التوقيعات نفسها المبنية على الوضوح الاقتصاد في الألفاظ والمعاني ،فلغتها وإنْ ظهرت فيها مسحة أدبية فهي في أصلها لغة دواوين إدارية حيث لامجال للخيال فيها ومن قلت كذلك الصور الفنية مثلما مرّ في جانب الصور البيانية.

أثر ألوان البديع في إثراء الجانب الإيقاعي في فن التوقيعات:

لألوان البديع دور مهم في إثراء الجانب الإيقاعي في بنية التوقيع الأدبي كون الإيقاع أوما يصطلح عليه بالموسيقا الداخلية في النص الأدبي، وهو ينتج عن تضافر ألوان البديع المعنوية اللفظية والمعنوية داخل هذا النص مما يصدر عنه مستويان من الإيقاع " يظهر [الأول منهما] في الأصوات والجمل التي عمادها التحسين اللفظي كالجناس والسجع والموازنة والمماثلة ، وغير ذلك من الأساليب التي تعتمد على التطريب الحسي المبني أساسًا على صناعة الإيقاع" (فاعورة، مج 30، ع1و2، ص125) وأما الثاني فيسمى "موسيقى الفكر النفسي الممتد من المعاني المتغايرة أو المنطلق منها والذي أسس في الأصل على المفارقة لا على المشاكلة والإمكانيات الصوتية أو العين التي تدرك بالإمكانيات الصوتي ةفعنما يستخدم المتكلم أسلوب الطباق يصطدم القطبان ، فيتولد الإيقاع الذي تدركه الروح أكثر من الأذن" (فاعورة، مج 30، ع1و2، ص125) وهذا ماوجد الباحث متحققاً فيما اطلع عليه من نماذج لتوقيعات العصر العباسي الأول، حيث كان لهذين المستويين حضوراً واضحاً وأثراً بيناً في جنبي التطريب الحسيّ والفكري النفسي ومن ذلك هذه الأمثلة توقيع الفضل بن سهل إلى حاجبه: "تمهلْ وتسهّلْ" (الأندلسي 1983م، ج4، ص303) وتوقيعه الآخر لصاحب الشرطة "ترفقْ تُوفقْ" (الأندلسي 1983م، ج4، ص303) حيث اجتماع الجناس الناقص مع السجع يطرب الأذن و يوقظ في نفس سامعها إحساساً جميلاً تروق له فتدعوه إلى تكرارها على لسانه لروعتها ، وفي مقابل ذلك نجد توقيع أبي جعفر المنصور إلى صاحب خراسان" شكوت فأشكيناك وعتبت فأعتبناك" (الأندلسي 1983م، 4، ص303).

حيث نجد المقابلة بين (شكوت فأشكيناك) و (عتبت فأعتبناك) قد أحدثت مغايرة معنوية بين الشكاية من (الآخر) المتمثل في صاحب خراسان وإجابتها من (الأنا) المدافعة عن ذاتها المتمثلة في أبي جعفر وبالمثل تماماً في قضية العتاب، الأمر يدور بين هذين القطبين ، فضلاً عن أنَّ العبارتين تشتملان على جناس ناقص وسجع وتكرار ناتج عن الحروف المتجانسة ذات الطبيعة الشفهية الجهورية أحدثت إيقاعاً مميزاً لعبارتين على آذن سامعها فضلاً عن أثرها الفكري والنفسي، الذي بدوه يتجاوز ماتدره الأذن ويحسه الفؤاد ويطرب له إلى اصطدام الضد بالضد اصطداماً ذهنياً فكرياً يدرك بالعقل وذلك حين يجتمع ضدين في نص أمام ناظريه مثل: (الحق /والباطل) في مثل توقيع توقيع المأمون:" ليس بين الحق والباطل قربة" (الأندلسي 1983م، ج4، ص298.) تمامها /وخواتيمها) في توقيع الفضل بن سهل

"الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها" (الآبي، دت، مج4- 5، ج5، ص74) و (اليوم/ غد) في توقيع أبي مسلم "لاتؤخر عمل اليوم لغد" (الأندلسي 1983م، ج4، ص301) فكل ماتقدم من متضادات هي أقطاب متباينة لاتلتقي أبداً، وما ندركه بعقولنا من تضاد بينهاهو إيقاع نفسي ومستوٍ ثانٍ مناتج عن التغاير المعنوي للمفردات المتضادة، وكل ذلك يدور بين قطبي الإيجاب والسلب ومما هوذو صلة التضاد بين النفي الإثبات في مثل توقيع المأمون التالي في قصة متظلم من محمد بن الفضل الطوسي " قد احتملنا بذاءك وشكاسة خُلقك ،فأماما ظلمُك للرعية فإنا لانحتملُه" (الأندلسي 1983م،ج4، ص298).

فمن ثنائية الإثبات والنفي بين (قد احتملنا/ فإنا لانحتمله) بما في كلتا الجملتين من تأكيد للإثبات وتأكيدٌ أشد لنقيضه النفي ،يحدث هذا الإيقاع الفكري بين المتضادين، ولاشك أنه لايقل أهمية عن الإيقاع المدرك بالسمع الناتج عن المحسنات اللفظية التي مثلنا لها بغير مثال.

- **نتائج البحث:**

ومما تقدم يخرج الباحث بعدد من النتائج أهمها:

1- إن التوقيعات الأدبية العباسية ثمرة من ثمرات تطور الكتابة العربية في العصر العباسي.

2- عرفت بعص من التوقيعات الأدبية في العصرين الإسلامي والأموي نسبت للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وبني أمية، ثم نضجت هده التوقيعات في العصر العباسي متأثرة بما وصلت إليه الكتابة والنثر الديواني من رقي وتطور.

3- اقتصار التوقيعات على الطبقة الحاكمة من خلفاء ووزراء وقادة جيوش أومن يخدم في دواوين الدولة من كتاب الدواوين المبرزين. حتى لتبدو لنا بحق أدب الطبقة الحاكمة.

4- تنوع التوقيعات الأدبية العباسية من قرآنية وحديثية ومثلية وحكمية وشعرية وقولية مرتجلة في تناص أدبي وفني وبنيوي فريد مع المصادر المذكورة.

5- قلة حصور الصور البيانية باستثناء الكناية والمجاز المرسل ؛ويمكن إرجاع ذلك إلى طبيعة لغة التوقيعات الأدبية التقريرية التي تميل إلى تناول الحقائق والأفكار بأسلوب عقلي ممنطق يبتعد نوعاً ما عن العاطفة.

6- ثراء البنية الأسلوبية وتنوع أساليبها من خبر وإنشاء وذكر وحذف وتقديم وتأخير وإيجاز ومساواة وإن كان يغلب عليها أسلوبا الحذف والإيجاز بوصفهما من المقاييس الفنية لفن التوقيعات.

7- خصوبة التوقيعات العباسية بألوان البديع اللفظية والمعنوية التي كان لها دورها المميز في ثراء البنية الإيقاعية للتوقيعات الأدبية العباسية وانعكاسها على جمالية المقطع وتقبل الأسماع له وسهولة علوقه في الأذهان ودوارنها على الألسن وتأثيرها المعنوي في نفس متذوقها.

8- مازلت التوقيعات عموماً لاسيما العباسية مجالاً خصباً لمزيد من الدراسات الأدبية الفنية والبلاغية المعمقة والدقيقة لاسيما من حيث البنية الأسلوبية واللغوية والإيقاعية ومن الناحية النصية.

- **ثبت المصادر والمراجع:**

أولاً: المصادر:

- القرآن الكريم ، رواية حفص.

1- الآبي (دت) نثر الدر في المحاضرات، مج4-5، ج5، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ ، بيروت، دار الكتب العلمية.

2- الأندلسي، ابن عبد ربه (1922م) العقد الفريد ، ج1، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،.

2- الترمذي (2011م). سنن الترمذي ، خرج أحاديثه وعلق عليه: عزالدين ضلي، وعماد الطيار، ياسر حسن، ط1/ مؤسسة الرسالة ناشرون ، 1432هـ/2011م.

3- الثعالبي، أبومنصور (19941م) أبو منصور، تحفة الوزراء، دراسة وتحقيق: سعد أبودية، ط1، دار البشر .

4- الثعالبي، أبومنصور (د ت) خاص الخا ص، قدَّم له: حسن الأمين، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة.

5- الجاحظ (1983م) مجموعة رسائل الجاحظ ، حقق نصوصه وقدم لهاوعلق عليها د. محمد طه الحاجري،ط1، دار النضهة العربية للطباعة والنشر.

6- الجرجاني ،عبد القاهر (1992 م): دلائل الإعجاز ، قرأه وعلّق عليه :أبوفهر محمود شاكر ، ط3، جدة مطبعة المدني .

7- الجهشياري ،(1938م).:الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي ،ط1،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

8- الخطيب القزويني (دت) : الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان.

9- ابن خلدون (2001م) المقدمة ، ج1، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

10- الزبيدي (1985م) تاج العروس، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت.

11- الزمخشري (1998م) أساس البلاغة ، تحقيق : محمد باسل سود عيون ، ط1 ، بيروت، دار الكتب العلمية ،.

12- ابن فارس ، أحمد (1969م) مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط2 ، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي .

13- الفيروز آبادي (1952م) القاموس المحيط.ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

14- القلقشندي (1922م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا،ج1، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية.

15- ابن ماجه (2009م) سنن ابن ماجه ،خرج أحاديثه وعلق عليه: عماد الطيار، ياسر حسن، عزالدين ضلي ، ط1/ مؤسسة الرسالة ناشرون .

16- ابن منظور (د.ت) لسان العرب ، د.ط ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ثانياً: المراجع:

1- أمين، أحمد، (1996م /1997م). ،ضحى الإسلام ،ج1،مكتبة الأسرة.

2- الجارم ،علي و أمين، مصطفى (2012م)، البلاغة الواضحة في البيان والمعاني والبديع، ضبطه وقدَّم له وعلق عليه: محمد صالح موسى حسين،ط1،مؤسسة الرسالة ناشرون.

3- حنفي ناصف وآخرون (2012م) دروس البلاغة، عني به أحمد السنوسي أحمد،ط1، دار ابن حزم.

4- الشايب ،أحمد (دت)أصول النقد الأدبي ،ط10،مكتبة النهضة المصرية.

5- الصعيدي ،عبد المتعال (1999م) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ج2، الناشر مكتبة الآداب ، طبعة نهاية القرن.

6- ضيف ، شوقي (د- ت) ، تاريخ الأدب العربي /العصر العباسي الأول،ط11،دار المعارف ،

7- عتيق، عبد العزيز (2006م) علم المعاني ، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية.

8- عتيق ،عبد العزيز (2006م) علم البديع، ط1، القاهرة ، دار الآفاق العربية.

9- العثيمين، محمد بن صالح (1434هـ): شرح البلاغة من كتاب قواعد اللغة العربية ، ط1، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

10- ..... (2004م) المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ط4.

11- الهاشمي ،السيد أحمد (1999م) جواهر البلاغة في البيان والمعاني والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، صيدا- بيروت ،المكتبة العصرية،.

ثالثاً: الدوريات:

- فاعورة، منيرة (دت) فن الطباق في أدب التوقيعات ، مجلة دمشق ، مج 30، ع1و2.

رابعا: المواقع الإلكترونية:

- الشهاوي، صلاح عبد الستار محمد (2013 م) التوقيعات الأدبية فن إسلامي خالص ،مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند ، رمضان – شوال 1434 هـ - يوليو - سبتمبر 2013م ، العدد : 9-10 ، السنة : 37.

- الدخيل ،حمد بن ناصر (2011م) فن التوقيعات الأدبية في العصرالإسلامي والأموي والعباسي ، موقع منتدى اللغة العربية نشر بتاريخ 31-5-2011م.